قمَريّة والخراف القمريّة

وقصص أخرى



تأليف: آدم اندرسون



ينير القمر ليالي الأرضَ منذ قديم الزمان ولطالما سحر الألباب وألهب الخيال وأجـــّج المشاعر وآنس كل من شعر بالوحدة وأصبح رفيقه الليلي الوفي. والقمر في قصتنا هذه ليس مجرّد جرم سماويّ فضّي خالٍ من الحياة.

في القمر بيت صغير لا نستطيع رؤيته بأعيننا المجردة مهما حاولنا، لكننا قد نراه لو استعملنا التلسكوب. صاحبة هذا الكوخ فتاة صغيرة تعمل على صيد الشهب وتربيتها... مهلا! هل قلت الشهب؟ إن ما نسمّيها شهباً ما هي في الواقع إلا خراف، وهي تبعث الضوء من صوفها النجمي، وهذه الخراف تقطع مسافات طويلة جدّاً من طرف النظام الشمسي[1] حتى تصل إلى حظيرة القمر، أو تسقط على الغلاف الجوي للأرض فيخفت نورها وتتحول إلى خراف عادية.

عندما تصل إلى القمر فهي لا تفقد نورها لأن غلاف القمر الجوي يكاد يكون معدوماً. في تلك اللحظة التي يرتطم الخروف منها على سطح القمر فإنه يصنع فوهة ويثير غبارا رماديا، لهذا نرى تلك الدوائر على سطحه. كلّما كان الخروف أسمن، كانت الفوهة أكبر.

تنطلق الفتاة الصغيرة فورا بمركبتها البطيئة، وعند وصولها إلى الخروف تحمله في عربتها وتنطلق على مهل حتى يتسنى لها الوقت الكافي لتبدأ صداقة ودّية مع هذا الفرد الجديد.

[1] سحابة أورت، يقال أن فيها المليارات من الخراف

- "لا تقلق يا خروفي الحلو، قَمَرِيّة ستهتم بك! هل أنت جائع؟ هل تريد زهرة؟ لدي الكثير منها."

-"شكراً قمرية، الرحلة كانت طويلة ومتعبة لكنني سعيد لأني وصلت إلى هنا و لم يجذبني كوكب المشتري إليه. عاصفته الكبيرة كانت لتعصرني."

- "تسعدني نجاتك يا حبّوبي، بالمناسبة اسمي قمرية هل أخبرتك بهذا من قبل؟"

لكن قبل أن تأسف على صديقتنا لأنها كثيرة النسيان دعني أقل لك شيئاً، ربّما لاحظت أن القمر ينير بمراحل مختلفة: هلال، بدر، نصف بدر... والسبب في هذا بسيط.

قمرية وبالرغم من حجمها الصغير فهي راعية خراف ماهرة، فمع بداية كل شهر تخرج المجموعة من الحظيرة ذات السور المنخفض وتبدأ رحلة الرعي الشهرية. انطلاقاً من بيتها ووصولا إلى الوادي القريب المليء بالأزهار ونبات الخبّازى الأزرق، وصولا إلى الساحة الشاسعة التي ما أن تدخلها حتى تدرك أنها تتوسط مدينة أسطورية من الزّمن الغابر، تخبر قمرية خِرافها الجديدة قصّة هذا المكان، إنها تكرر القصّة دائما، لكن الخرفان القديمة لا تمل من القصة ولا تمانع في سماعها كل شهر من قمرية، تتفق كلّ الخراف على أن الفتاة الصغيرة تجيد رواية القصص.

- "كانت المملكة مشهورة بتنوع ثقافاتها وقد استضافت هذه الساحة كل أنواع العلوم والفنون."



تفتح قمرية يدها وترفعها عاليا ثمّ تبدأ بالجري:

- "يقال أن البساط الطائر كان يتوسط هذه الساحة. هنا، هنا تماما."

تشير بإصبعها الصغير إلى مستطيل منقوش على الأرض، لكن زخرفاته تكاد تكون مطموسة بالكامل. تتزاحم الخراف وتنظر في دهشة إلى مكان البساط، إلى أن تشير إليهم قمرية بمواصلة الطريقة.

تنسى قمرية أن عليها الرجوع إلى البيت في نهاية اليوم وتحضير خرافها للنوم، لذا تواصل المسير حتى يرى الرّائي من الأرض أن القمر نصف بدر، وذلك لأن عدد الخراف كبير، تخيل أن بداية القطيع تكون عند قمرية، والتي هي الآن في منتصف القمر، بينما النهاية تكون عند بيتها، والذي كما قد نعرف، عند طرف القمر.

تصل الآن إلى الصحراء المقفرة، وبوصول الضياء تختفي الحيوانات التي تحب الظلام تحت سطح القمر وهي تتأفف وتتذمّر. يُظهر صغير ابن عرس اعتراضه لأنه لم يبدأ اللعب إلا الآن، وأمه تريد منه أن يعود للبيت.

- "الآن قد بدأت اللعب، والآن تريدين إنهائه والآن بدأت أحزن."

في النهاية يستسلم الصغير ويدخل إلى بيته، ومن بعيد نرى قمرية قادمة وبقدومها تخفت النجوم شيئاً فشيئاً ويعمّ ضياء الخراف، وهي تغني أغنيتها المفضلة وكل نعجة تردد ورائها بحماس:

القمر قمرين بوجود قمرية

سماه حلوة وأرضو فضية

نزرعها نور، حُب وأمنية

تظل قمرية والخراف على هذا المنوال شهراً كاملا، تقطع الغابات والجبال والمستنقعات القمرية وتأكل زهور الزلابية وتمضغ أسماك العلكة الضاحكة. وتقابل الضفادع الموسيقية والأرانب التي تطحن الأرز والدببة التي تراقب الفضاء.

وتكون بذلك قطعت وجه القمر الذي يقابلنا كلّه، وبالتالي يصبح القمر بدراً. وعندما تصل إلى الجانب الآخر يبدأ قطيع الخراف بالاختفاء تدريجيا إلى الوجه المظلم الذي لن نراه أبداً، وهنا يبدأ الهلال بالظهور على الجانب الآخر إلى أن يختفي.



تغطّي المياه مساحة كبيرة من كوكبنا الأزرق الجميل. هناك محيطات وبحار وجداول وأنهار وهناك أسماك تسكن في كل هذا.

تحب الأسماء التجوّل بين حطام السفن عندما لا تأكل الكائنات المجهرية أو تشارك في مسابقة مصارعة الزعانف الشعبية. من بين الأشياء التي تفضل الأسماك القيام بها هي الاستماع إلى القصص التي يحكيها المرجان العتيق في كلّ ليلة.

تجتمع السمكات في أسراب في الحيد المرجاني وتتساءل فيما بينها عن حكاية اليوم. هل ستكون حكاية عن حوريات البحر؟ أم مغامرة سمكة أبو سيف في بركان ثائر؟ لا أحد يدري.

السمك يتكلم ويتكلم فيما يطلب المرجان الانتباه:

- "عفواً. أحم، اليوم سنتكلم عن الغواصين... عفواً، هل سنحكي الحكاية أم لا؟"

ينتبه السمك أخيراً ويخبو الكلام شيئاً فشيئاً.

- "نعم، هكذا أفضل. قلت أن حكاية اليوم ستكون عن الغواصين الذين يترلون إلى الأعماق في أقفاص حديدية."

تقاطع إحدى السمكات الثرثارات العم مرجان، وتنظر إليها كل أنواع الأسماك الأخرى، ثمّ تقول ما عندها بلهفة:

- "أنا أعرفهم، إنهم يقطعون سطح البحر الأزرق في أصداف مزعجة ويطعموننا الدود ويعطوننا الألعاب المطاطية."
- "شكراً يا عزيزتي. إضافة إلى ما قالته صديقتنا، فإن الصيادين يترلون إلى البحر لاستكشاف السفن المحطمة في القاع. إن البشر يحبون الكنوز. في أحد الأيام العاصفة قامت بشرية بالترول من السطح لتعالج ابن عمي. ففي نهار ذلك اليوم سقطت مرساة سفينة وكسرت كلّ أغصانه الرقيقة. وليظهر شكره فقد أعطاها خريطة جلدية مكتوبة بزيت الحوت وحبر الأخطبوط. "

تراجعت الأسماك خوفاً فطمأنهم المرجان إلى أن هدئوا ثمّ واصل حديثه:

- "كانت الخريطة ترسم مساراً إلى مدينة أسماك القرش. هذه المدينة مبنية من حطام السفن، وقد نزلت تلك البشرية إلى هذا الحطام في قفص حتى لا تمزّقها تلك الأسماك. وبإرشاد من الخريطة غاصت حتى وصلت إلى مكان يلمع بلون أصفر يكاد يغلب اللون المحيط الأزرق."
- "لوني المفضّل، لوني المفضّل يا جماعة!" صرخت إحدى أسماك السردين.

- "عند اقتراب البشرية من مصدر اللّمعان أخرجت شيئا طويلا وأمسكت به قطعة من المعدن الأصفر لكائن مضحك يميل إلى شكل الإنسان."

تقافزت إحدى الأسماك الصغيرة: "أهو قرد؟ هو قرد صحيح؟"

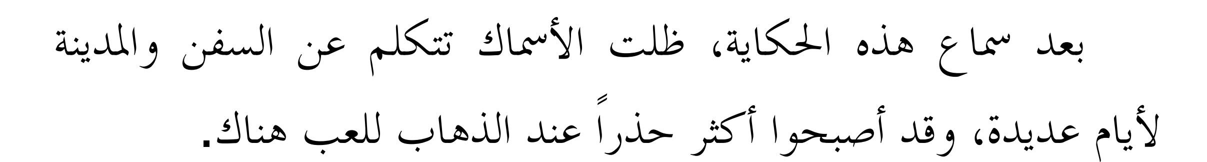
- "ربما، كل ما أعرفه هو أن أسماك القرش خافت كثيراً وهجرت المكان على الفور. وفيما بعد تبين أن سبب خوفهم هو وجود مدينة بشرية تحت حطام السفن."

انتفضت إحدى السمكات في حيرة وقالت: "مدينة بشرية؟ ولماذا تهرب أسماك القرش من مدينة بشرية؟"

- "كنت سأخبركم بهذا لولا أنكم تقاطعونني باستمرار. على أي حال، كانت المدينة جزءاً من جزيرة غرقت منذ آلاف السنين، وسبب خوف أسماك القرش هو تيار الماء الذي يعبر من خلال أزقتها، إذ يرافقه صوت لا يسمعه البشر لكن حواس أسماك القرش حساسة."

- "يا ويلي!" همست سمكة مرعوبة.

- "ما قولكم إذاً؟ أرى أن إصابة ابن عمي تسببت بالخير للجميع. فالحطام الذي تلعبون فيه أنتم وأولادكم ما هو إلا بقايا تلك السفن التي كانت تسكنها أسماك القرش، والمدينة التي أخبرتكم عنها قد غطتها النباتات البحرية بعد كشفها للبحر، لكنها مازالت تخيف أسماك القرش."



بعد سماع هذه الحكاية، ظلت الأسماك تتكلم عن السفن والمدينة لأيام عديدة، وقد أصبحوا أكثر حذراً عند الذهاب للعب هناك.



حلّت ليلة ما قبل العيد هذه السّنة ففرح سكّان المدينة وبدءوا بالتّحضير للعيد، فبدءوا بشراء أدوات تحضير الكعك والمكونات الخاصة مع أطفالهم. أمّا في طرف المدينة السّعيدة فقد كان هناك كوخ صغير تعيش فيه أمّ وابنتها الصّغيرة. لا ترى من الكوخ إلّا أضواء الشموع في الفوانيس الصّغيرة.

وقفت الطّفلة الصّغيرة على كرسيّ في المطبخ تحاول جاهدةً صنع الكعك على الطّاولة تحت نور الفانوس الضّعيف، لتفاجئ به أمّها المتعبة من العمل، في صباح اليوم التالي، لكنّها كانت تفسد الكعك كلّ مرّة. قررّت أن تحاول خبز كعكات على شكل بطّة مجّدداً لكنّ اليأس غلب عليها فحزنت.

في هذه اللّحظة نطّ من النّافذة علجوم عجوز طويل اللّحية يحمل عصاً أطول منه وقال: "لا تيأسي يا فتاة سنصنع كعكاً من شتّى الألوان! امسحي عن وجهك دموعك وهاتي الزّبدية وملعقة الخشب." إلاّ أن الفتاة فركت عينيها الصغيرتين ظنّاً منها أنها في حلم وأنّ العمل أرهقها، فاتّجهت إلى غرفتها البسيطة تحت أنظار العلجوم الذّاهلة. بعد لحظة من الصّمت أخذ يصيح: "ارجعي إلى هنا أنتِ لستِ في حلم!"



رجعت الفتاة إلى المطبخ وهي تشكّ في هذا الكائن الصّغير فسألته:

- "أنتَ حقيقي؟" فهزّ رأسه فرِحاً موافقاً.
- "وتريد مساعدتي في صنع الكعك؟" فقال بسرعة: "نعم نعم."
- "كعك على شكل بطّ وسلاحف مائية، صح؟" فقال: "أيوه، صح، صحيح، نعم."

أمسكته الفتاة من لحيته وهو يصرخ ثمّ رفعته إلى الضوء لتتأكد من أنه حقيقي.

- "أنتَ حقيقي." فقال غاضباً: "منذ ساعة وأنا أقول هذا. لا يهم، هاتي الأواني إلى الطاولة." بعدها انتزع نفسه من يدها وقفز إلى الطّاولة الخشبية.

لوّح بعصاه السّحريّة وقال: "كيس طحين وبيض وزبدة وماء زهر وفستق. شكلاطة وعسل وحلوى ملونة صغيرة وبندق. ضفدع هائم وسبع يزأر وعصفور يزقزق."

تحت أنظار الطّفلة المندهشة امتلأت الطاولة بكلّ مكوّنات صنع الكعك. حمل العلجوم كيس الطّحين بصعوبة وأفرغ نصفه في الزّبديّة، ثمّ أمسك البيض وكسره على طرفها وأفرغه فوق الطّحين والسّكر والملح، وطلب منها أن تسخّن الفرن وتدعك صينيّته بالزبدة. قفزت الفتاة من الكرسي الصّغيرة وفعلت ما طلب منها، خلط العجينة بملعقة الخشب وعندما أصبحت جاهزة لوّح بعصاه فظهرت قوالب كعك على شكل

حيوانات وأجرام سماويّة. فرحت الفتاة أكثر ووضعت ذقنها على يديها واتّكأت على الطاولة تشاهد العلجوم وهو يتحرّك بخفة وسعادة. لكنّه عاتبها وطلب منها أن تساعده حتّى تسعد أمها.

طرحت الفتاة العجينة الجاهزة على الطّاولة وراحت تسطّحها على شكل قرصة كبيرة فيما راح العلجوم يرتّب قوالب الكعك، ثمّ قال: "جيّد، والآن سأدهن الحلويات بعصير الحظّ السّعيد." عندها فرحت الفتاة. وبعد لحظات من العمل بدآ في وضع القوالب على القرصة وتقطيع الأشكال، كانت هناك أرانب وبط ونجوم ودوّيرات ونحلات وهلال وزهور وسلاحف مائيّة. بعدها رصفا كلّ هذه الكعكات في صينيّة الفرن ووضعاها داخله لتنضج.

ما عليهما الآنّ إلاّ الانتظار في هذه اللّيلة إلى أن ينضج الكعك. اغتنمت الفتاة الفرصة وراحت تسأل العلجوم:

- "هل أنت أمير مسحور؟" فوجئ العلجوم بالسّؤال وقال بأن أمه وأباه علجومان سحريان، وأنه هو بدوره علجوم أصيل.
- "هل تستطيع تحقيق الأماني؟"
- "ماذا؟ نعم لكنّ أنا أعمل على مساعدة النّاس فقط، أظن أن تحقيق الأماني يعلّم الناس الكسل. لذا أساعدهم فقط. أخبريني هل لديك أمنية ما؟ قد أحققها لك، فأنت فتاة طيبة ولطيفة." ثمّ فرك العلجوم لحيته وهو يفكّر.

فرحت الفتاة وقالت أنّها تريد شيئاً يزيح عن أمها هذا التعب، لكنها لا تعرف ما هو. عندها قال العلجوم أنّ لديه فكرة، وقفز إلى النافذة ثمّ إلى الخارج، وتبعته الفتاة في فضول ثمّ أطلّت برأسها. بعد لحظات أحضر زهرة قرمزيّة كانت تحيط بها الثّلوج في الخارج وقال:

- "ازرعي هذه الزّهرة في إناء وفي كلّ أسبوع ستسقط منها بتلة وستتحوّل إلى ذهب وستبيع أمك هذا الذّهب. اعتني بالزّهرة وسوف تبقى مدّة طويلة جدّا، نعم، لأنك فتاة طيّبة حققت أمنيتك."

فرحت الفتاة كثيراً بما حدث معها هذه اللّيلة، هاهي أمها ستستيقظ صباحاً مع رائحة الكعك الشّهية وشذا الزّهرة التي تنبت ذهباً. في غمرة السّعادة تلك، رفع العلجوم رأسه فجأة وبدأ يشمشم: "لقد نضج الكعك." قامت الفتاة بإخراج الكعك من الفرن بحذر حتى لا تصاب بحروق، ووضعت الصّينية على الطّاولة وبدآ بتزيين الكعك بالشكلاطة والحلوى الملونة والفستق والبندق. اتّفقا أنّ على أنّ رائحة الكعك شهيّة وقد سُعدا بالعمل معا.

استيقظت الأم ووجدت ابنتها نائمة على الطّاولة وهي سعيدة وحولها الكثير من الكعك المزّين الرّائع وعلى النّافذة زهرة تنبت الذّهب. فرحت وقبّلت ابنتها الطّيبة.

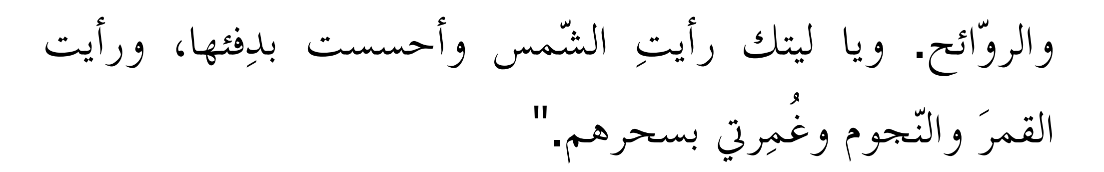
استيقظ العالم كلّه على أهازيج العيد وسطعت الشّمس على الثّلج وغرّدت الطيور جذلة مسرورة. إنّه العيد، إنّه العيد.

أميرة الثّلج

في أحد الأزمان كانت الأرض مغطّاة بالثّلوج والجليد، والكائنات فيها متجمّدة مثل قطع الكريستال النّقية. الأشجار والأزهار والصّحاري كلّها متجمّدة صامتة، وكانت الرّياح العاصفة تنوح في كلّ أركان الأرض المظلمة. وقد حكمتها ملكة تُسمّى ملكة الجليد. كانت الملكة شرّيرة باردة القلب، وكان لها وزير طيّب اسمه صقيع.

ولدت الملكة بنتاً حلوة وبعد سنتين ماتت الأم، فعكف الوزير على تربية الطّفلة، وحرص على أن تحمل خصالاً على عكس خصال أمّها، فعلّمها كيف تحبّ الحياة. وفي أحد الأيام كانت الأميرة الصغيرة تتجول في الحديقة الثّلجية، فرأت شيئاً عالقاً على جانب شجرة كبيرة كأنه يريد أن يتسلّقها، فسألت الوزير عنه، فقال لها بأنه سنجاب، وأخبرها أنه كان يتسلّق الشّجرة حتى يطعم أولاده الصّغار، لكنّ الجليد أحاله إلى هذه الحال. حزنت الفتاة وطلبت منه أن يُخبرها المزيد فقال:

- "كانت الأرض تعجّ بالكائنات الحية المختلفة وكانت مليئة بالألوان، ولو ذاب هذا الجليد الآن في هذه الحديقة فقط، لرأيتِ الكثير من العجَب! فهذه الشجرة أوراقها خضراء وأغصانها تميل إلى البنّي وفاكهتها حمراء. والسّماء الواسعة فوقها كانت زرقاء وفيها غيمات بِيض ناعمة. والعشب مخضرّ تنبت فيه ورود بشتّى الألوان



والروّائح. ويا ليتك رأيتِ الشّمس وأحسست بدِفئها، ورأيت القمرَ والنّجوم وغُمِرتي بسحرهم."

أعجبت الأميرة بكلام الوزير فباتت في المساء العاصف تفكّر. ثمّ شاهدت الحديقة من نافذة غرفتها وتنهّدت. كانت الرّيح تعصف في الظّلام، تُصفر في كلّ مكان. بمرور الأيّام كان إحساس الأميرة بالوِحدة يزداد شيئاً فشيئاً، وفي كلّ مرّة تطلب من الوزير أن يخبرها قصصاً عن الأرض التي كانت حيّة في الماضي البعيد. كانت عينيها الزّرقاء تذرف الدّموع الكريستالية.

في يوم من الأيّام فكّرت في أن تفعل شيئاً لتعيد الأرض إلى الحياة مجدّداً، فحذّرها الوزير قائلا:

- "يا ابنتي بإمكانك أن تنقذي الأرض، لكنّ في إنقاذها نهايتك. لن يُقدّر لك رؤية أي شيء، فإذا اختفى الجليد فستختفين معه."

في تلك اللّحظة تردّدت الأميرة قليلاً، فهي تريد رؤية كلّ الأشياء الجميلة، تريد أن تتوسّد العشب بالقرب من النّهر الجاري وتستمتع بالنّسيم تحت ظلّ شجرة وهو يداعب أوراقها. تمدّدت تحت شجرة جليديّة وراحت تحرّك أطرافها عبثا وهي تفكّر، كم هي ميتة هذه الشجرة. ثمّ أغمضت عينيها وراحت تفكّر في صوت الرّيح الغاضبة، تصرّ على قتل كلّ شيء وكتم كلّ صوت للحياة، تُبقي على عويل الموت فقط. تلتفت إلى زهرة جامدة صغيرة نابتة بجانبها، وعليها نحلة ملفوفة

بالجليد، لأوّل مرة ترى الفتاة نحلة، ترى كم من المدّة بقيت على هذه الحال؟ سألت نفسها.

أمضت الفتاة بقيّة يومها متمدّدة في الحديقة لا تقول شيئاً، لكنّها تفكّر في الكثير. كان الوزير ينظر إليها من خلال نافذة القصر مشفقاً عليها.

أخبرها الوزير يوماً أن والدها غمرت العالم بالثّلوج باستخدام كرة سحريّة جليديّة. منذ ذلك الوقت والكرة مطمورة تحت القصر، في مكان ما من دهاليزها المتشعّبة. في المساء وفي القاعة الفسيحة جلسا إلى الطّاولة الكبيرة وقد لفّ الصّمت المكان مثلما لفّتها الظّلمة والبرودة، وازداد عواء الريح في الخارج، ينفذ صوتها مع نُدف الثلج من الفجوات الصغيرة المنتشرة في النّوافذ.

أخيراً كسرت الأميرة الصّمت الثقيل، وسألت الوزير إن كان من الأنانية أن يستمر الوضع على حاله. لم يقل الوزير شيئاً.

تتالت الأيام وصمت الأميرة يطول وحزن الوزير يزداد، إلاّ العالم، لم يتغيّر منه شيء.

في صباح أحد الأيّام قامت الأميرة على غير عادتها، فقد اعتدل مزاجها وصارت أكثر انشراحاً. فرح الوزير لكن في داخله خوف مدفون. وضعت يديها خلف ظهرها وراحت تخطو في القاعة وتفكّر

ساعة ثمّ تنظر من النّافذة ساعة، ثمّ التفتت إلى الوزير وطلبت منه أن يرشدها إلى الكرة الجليدية.

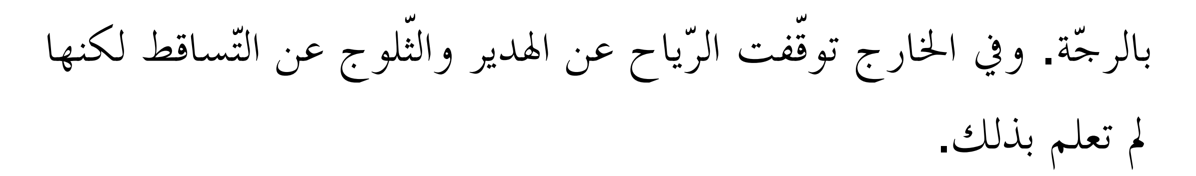
تحقّق خوف الوزير لكنّه استسلم للأمر وسار أمامها إلى باب عملاق يقود إلى متاهة من الدّهاليز، وطلب منها أن تعفيه من الدّخول إليها. دخلت الأميرة واختفت تدريجياً في الظّلام. بعد نصف يوم من المسير في هذه الشّبكة المتشعّبة وجدت الأميرة بابا حجريّاً يحرسه تمثالان حجريّان لفارسين طويلين على قدر عظيم من الوسامة، سألاها بصوت واحد:

- "ما هي أوامر سيّدتي الصّغيرة؟"

سألتهما إن كانت هذه هي غرفة كرة الجليد السّحرية، فأجابا بالإيجاب، ثمّ سألاها عن سبب تواجدها ولماذا تريدها، فأخبرتهم بأنها تريد أن تعيد الحياة إلى الأرض وأنها سئمت هذا العالم الكئيب.

- "تعلم سيّدتي الصّغيرة أنها ستقضي نحبها إن أبطلت عمل الكرة. سنفتح الباب، لكن أرجو أن تقبلي هذه القلادة." ثمّ سلّمها أحدهما قلادة ذهبيّة وسلّمها الآخر قلادة ألماس.
- "تقلّدي قلادة الألماس، وارجعي إلى الوزير واطلبي منه أن يتقلّد قلادة الذّهب، وعند رجوعك إلى هنا سيكون هذا الباب مفتوحاً."

وضعت الأميرة القلادة حول رقبتها ورجعت من فورها إلى الوزير الحزين وسلّمته قلادته فوضعها حول رقبته. ثمّ رجعت الأميرة إلى الدّهاليز نحو غرفة الكرة، وفي هذه الأثناء اهتزّ القصر قليلاً فشعرت الأميرة



بالرجّة. وفي الخارج توقّفت الرّياح عن الهدير والثّلوج عن التّساقط لكنها لم تعلم بذلك.

لدى وصولها وجدت الباب موصداً وتمثالا الفارسين قد اختفيا. حاولت دفع دفة الباب الكبير لكن دون أمل. رجعت إلى القصر البارد تجرّ أذناب الخيبة وقطعت كلّ رجاء في أن تنقذ الأرض. ولدى وصولها فوجئت بتغيّر الجو. انجلى السّحاب القاتم وصمتت الرّيح وتوقّف الثّلج وطلعت الشّمس تنشر أشعتها الذّهبية الدافئة من خلال نوافذ القصر، تطرد أشباح البرد والظلام، لأول مرّة منذ دهر طويل.

حزنت الأميرة لأنها أدركت أنّ الفارسين قد ضحّيا بروحيهما بدلاً منها وهذه القلائد كانت لحمايتها وحماية الوزير. بعد زمن من الحادثة كانت الأميرة متوردة الخدّين سعيدة تداعب السّناجب في الصّيف وتزيّن شعرها الطّويل بالأزهار الملوّنة. تارة تنام في الظّهيرة على العشب الغضّ تحت شجرة يداعبها النسيم وتارة أخرى تحملق في وجهها في صفحة النّهر الصّغير الجاري وحولها العصافير تغنّي. أما الوزير فإنّه أقبل على فِلاحة الأرض مع الفلاّحين وواصل الاعتناء بأميرة الثّلج الصّغيرة.



يعيش في الصّحراء الحارّة كائن بحري متفاخر، يحمل على ظهره صدفة حلزونيّة فيها نوافذ صغيرة، وينتصب أعلاها هوائي موصول بتلفاز ملون موضوع داخل أحد لفّات القوقعة. وقد فرش سجّادة فارسية مزركشة وعلّق فيها فانوسا مصرياً يضيء مكتَبه المصنوع من خشب الصّنوبر الغامق.

عندما يمشي متبختراً، على الرّمل في الزّقاق تحت الشّمس اللافحة، يرفع رأسه وينفخ صدره في إعجاب. وعندما تجتمع الحيوانات الصّحراوية وتنظر إليه، وهم بين معجب وحسود، يتوقّف ويقول:

- "اليوم الشّمس حارّة على عكس الأيام الماضية، لا أدري أيّ من هذه الخيارات أفضل، هل أستلقي وأمسك المروحة اليدويّة المصنوعة من الحرير والقصب وأستقبل النافذة وأتفرّج على الصّبّار وحيوانات الريم، أم أشغّل المبرّد الكهربائي وأنام على سجّادتي الفارسية، أو ربّما أسبح في المغطس الرّخامي المملوء بماء الورد؟"

ثمّ يواصل السّير ببطء على الرّمال الحارقة مواصلاً سخطه من حرّ هذا اليوم. تتبعه جماعة الحيوانات الفضولية الأولى، وعندما يصل إلى جماعة أخرى ويرى أنّه أثار انتباهها يتوقّف ويقول:

- "البحر ألطف كثيراً من هذا المكان الجّاف، تسبح متى تشاء وتتعلّق بمظلّات الرّوميات السّمراوات لينطحك النسيم الشّمالي العليل. حتّى لو قعدت تحت الشّمس، يا ربّي! حتّى لو قعدت تحت الشّمس فإنها تكون على جلدك كاللّمسة الحنون. وإن شئتُ غطستُ في الماء فأرطّب جلدي وأصبغه بالملح وأخرج للشمس وأستلقي على الرّمل النّاعم، فأكسبه سُمرة بعد بياض."

ثم يمشي مرّة أخرى متأففّاً شاكـــياً ثقيل الخطوة، تتبعه الجماعة الثّانية من الحيوانات الفضولية. يتوقّف لفترة قصيرة يمسح العرق الذي يصبّ صبّاً ثمّ يواصل سيره وهو ساخط، ويعاهد نفسه أن يعود إلى جزر المالديف ويتعلّق على أسطح الأكواخ الفاخرة. وما إن يرى مجموعة فضوليّة أخرى تطلب الظّل تحت النّخل والسّدر، ويتأكّد أنه قد استجلب انتباهها حتّى يتوقّف وهو يعصر منديله المخلّل بالعرق المنساب من جبينه الوضّاح، ثمّ يرفع يديه للسّماء شاكياً:

- "وَيبَك يا عقلُ لما أوصلتنا إليه، كنتُ في سلامة في قصر أجدادي المنيف، أطلّ منه على البحر العظيم، ولم يبق لي ما يصلني به الآن إلا سجّادة فارسية مزركشة ومكتب من خشب الصّنوبر الغامق وبخور هندي أصلي."

ثمّ يواصل سيره متأسّفاً وبخطى أبطء من الأولى وانكساراً أشدّ. مرّة يركل حبّة رمل في طريقه، ومرّة يضع يديه على خصره ورأسه إلى الأسفل ويتّكئ على قوقعته في أسى، وكأنّه بطل حكاية في مشهد ختاميّ

حزين. وبعد أن يملّ من الوقوف الدرامي يواصل سيره مخافة أن يملّ جمهوره أيضاً فيغادروا قرداً وقردين. لكنّه ما يلبث أن يتوقّف مرّة أخرى عند جماعة رابعة تنظر إليه بدهشة، فيشقّ لباسه وينوح ويولول:

- "كنت لأتفرّج في تلفازي الملوّن لكنّ برنامج اليوم شاهدته في الأمس، ولكنت حرّكت الهوائيّ نحو قمر آخر لولا الشّمس اللاّفحة التي لا ترحم. وأقراص الفيديو التي اشتريتها من مدينة البندقيّة شاهدتها كلّها والأقراص التي اشتريتها من الإسكندرية أحفظها للأيام العسيرة."

ثمّ ينفّش شعره المدهون بزيت الزّيتون الأصلي ويصيح: "أححت من الأحيح وما في ثلّاجتي غير الماء الصّقيع." ثمّ يقع مغشيّاً عليه والحيوانات الصّحراوية تتفرّق في كلّ اتّجاه. وهذا دأب قوقع الماء في كلّ يوم.

رنيم

منذ سنوات قليلة كنت أحسب نفسي بارعة جداً في الغناء، وإعجاب الناس بموهبتي زادني ضلالاً فتكاسلت و لم أجدّ في تحسين أدائي للأغنيات التي أحبّها جداً.

في عشية أحد الأيام كنت أعدّ خطواتي في ملل وأنا أحرث الشّارع العامّ جيئة وذهاباً، الرّجل اليمنى في بلاطة بيضاء والأخرى في بلاطة زرقاء. ظللت على هذا المنوال وقتا إلى أن سمعت صوتا جميلاً من داخل المقهى. وأنا مفتونة، رحت أجري حتى وقفت على عتبة الباب وملأ ظلّي كلّ المكان. زاد إعجابي أكثر عندما رأيت جمال صاحبة الصوت، كانت تراقص كلماتَها العذبة وأنغامَ حنجرتها السّاحرة، منغمسة تماماً في عالمها الخاص ومكتفية بالسّعادة التي تلمع من عينيها الشّاردتين.

بعد أن أنهت جولتها الغنائية نزلت من منصّة المقهى تحت وابل من التصفيق، وهي محمرّة الخدود، حمرة تناسب ثوبها الأسود الأنيق المزيّن بالورود الحمراء، وشعرها الأسود المموّج الطّويل. بعدها توجّهَت إلى طاولة في زاوية المقهى وراحت روحها إلى المجهول القابع خلف زجاج النافذة. قاومت تردّدي وقصدت طاولتها، وما إن جلست حتّى انتشَلت روحَها من ذلك المجهول ونظرت إلي بعينين مليئتين بالحياة، ما أجملها هذه الفتاة.

سألتها عن سرّ غنائها الجميل، فوضعت ذقنها الأنيق على ذراعها وتمددت على الطّاولة ونظرت إليّ نظرة جعلتني أذوب في مقعدي. أخبرتني أن الغناء يخرج من تلقاء نفسه من قلبها، وما عليها إلاّ أن تكون صادقة في كلماتها، وأن تعزف الألحان بنيران روحها.

زاد إعجابي بها وكم تمنّيت لو أني التقيت بها قبل الآن. أخبرتني أنّ اسمها رنيم، ثمّ غادرت المقهى.

بتّ تلك اللّيلة وكأنّي انتقلت إلى عالم آخر، وتوسّلت إلى النّجوم أن تلاقينا يوما ما. رحت أُسائل نفسي فيما كنت أغنّي من أعماق قلبي وقد شككت في غنائي منذ تلك اللّحظة التي سمعت، ورأيت فيها رنيم.

مرّت الأيام واللّيالي ورنيم هائمة في مكان ما، لا بدّ وأنها تسحر الملايين من الظمأى والحالمين الآن. أحسست بالوَحدة تتسلّل إلى حياتي وصرت أمرّ على المقهى كل عشيّة وأصخ السمع لكن في كلّ مرّة لا أسمع رنيم تغنّي في الدّاخل.

أصبت بحزن شديد فما وجدّت بدّاً إلاّ أن أغنّي لأنقذ نفسي، أنشدت إلى النجوم في الحديقة كلماتي فأصغت، وأصغت معها الورود والجدران وكلّ العالم، ثمّ سكتّ. بعد ساعة، وفي غمرة الحزن سمعت دندنة سعيدة تقترب منّي في الطّريق، طرب قلبي لهذه الدّندنة لأنّي عرفت صاحبتها، وإذا بي أجد نفسي أجري في الشّارع المنحدر صوب الصّوت. لقد كانت هي. طوّقتني بذراعيها ووضعت رأسها علي وأعادت الحياة إليّ بابتسامتها الهادئة.

رحنا نسيرُ ونسير تحت نور القمر الفضّي الذي يسبح تحت السّماء الزّرقاء الداكنة، وأنا أطلب منها في كلّ لحظة أن لا تغادر مجدّداً. فما وجدّتني إلا وأنا أتمسّك بها بذراعيّ مطوّقة بهما خصرها بكلّ قوّتي، خشية أن تختفي مجدّدا فلا تعود أبداً مرّة أخرى.



في ليلة مظلمة عصفت الرّيح وهطلت الأمطار غزيرة على غابة كبيرة فاختبأت الحيوانات لتحمي نفسها من البلل. في وسط الغابة، يوجد بيت صغير يصدر منه صراخ يختلط بهدير الرّيح وصوت حبات المطر التي ترتطم على الأوراق والسطح القصديري للبيت. فيما يبدو، إنه صراخ الزّوجة التي تضع مولوداً، تولول وتقول لزوجها القلِق أنّ المولود لن يأتي بخير إلى بيتهما، وسترميه للدّببة في أول لحظة يخرج رأسه إلى العالم.

لسوء حظّ الزّوجين فإنّ الولد كان بشعاً فعلاً و لم يرغبا به. بعد أن سمّياه زريّعة[1] الشّر، حمل الزوج الوليدَ في سلّة قديمة ولبس معطفه وخرج في الجوّ العاصف من أجل أن يضعه في الغابة، ثمّ رجع إلى بيته غير ندمان.

في صباح اليوم التالي مرّ عجوز ساحر -لكنّه طيّب- بالقرب من الشّجرة التي وُضع تحتها المولود، نظر إليه العجوز فأشفق عليه وقد قرّر أن يتبنّاه. بعد عدّة سنوات كبُر الولد البشع، وقد فقد العجوز الطّيب كلّ أمل في أن يعلّم الصّبي أشياء جميلة، إلا أنه قد منعه من فعل الأشياء الشّريرة.

في أحد الأيام سلّطت الغربان شرورها على حديقة العجوز الصّغيرة، وراحت تأكل الخضار المغروسة حتى أبقت على القليل فقط، حتّى سحره لم يساعده في التّخلّص منها. أصيب العجوز بالهلع وأيقن بأنه

---

[1] بذرة

سيموت من الجوع لا محالة، إلاّ أنه ولحسن حظّه لم تأكل الغربان شيئا في اليوم التالي، لكنّه لم يعلم بشأن ذلك.

خرج العجوز إلى الحديقة في الصباح الباكر وهو حزين، إلاّ أنه قد فوجئ بأن الخضار المتبقّية لازالت كما هي لا ينقص منها شيئاً. أبصر في وسط الحديقة شيئاً عجيباً، عصا طويلة مغروسة في الأرض وأخرى مربوطة عليها، شكلها مثل الأذرع المفرودة، وعلى هذه العصّي ملابس رثّة وقبّعة قديمة، وبالقرب منها الفتى البشع يجدل خيوطا على العشب. أدرك العجوز أن زريّعة الشر هو من صنع هذه الفزّاعة لتخيف الغربان، وقد قرر أن يسمح له بفعل شيء شرير واحد كمكافئة له. أخبره بأنه إن تتبّع الطريق التّرابي وسط الغابة فإنّه سيصل إلى قلعة وأنّه إن استعمل ذكاءه سيفوز بالأميرة الجميلة التي تعيش فيها والتي تشترط الذكّاء كميزة لزوجها المستقبلي. فرح الفتى وأخذ معه كسرة خبز وحبّة طماطم زاداً للرّحلة.

قطع زريّعة الشّر شجرتين عظيمتين في طريقه وأزال الأغصان والفروع، ليقوم بنفس الحيلة التي أخاف بها الغربان، ولكن هذه المرّة بشكل أكبر. إلاّ أنّه قد حار في أمره فيما بعد، فهو لا يستطيع جرّ الشجرتين العملاقتين وحده.

وبينما هو يفكّر مرّ بجانبه حصان جوعان طفق يشمشم حقيبة الفتى. أخرج زريّعة الشّر الطماطم وأعطاها إلى الحصان الذي أكلها بشهيّة، ثمّ ربط حبلا حوله وحول الجذعين وراح يجرّهما صوب القلعة.

وفي طريقه صادفته امرأة تنوح، وقد أضاعت طريقها عندما كانت تنوح في غابات اسكتلندا.

أشفق الفتى عليها وأعطاها قطعة الخبز، فسكتت وأخبرته أنها تلهط[1] عندما يشارف أحدهم على الموت، وأنها ستلهط من أجله وقتما يشاء جزاء طيبته. اتّجهوا جميعاً إلى القلعة وعندما وصلوا اختبئوا خلف الصّخور حتى يحلّ الظّلام.

عند حلول المساء نصب الفتى أحد الجذوع بالقرب من نافذة كبيرة، وقد اتّضح لنا فيما بعد أن النافذة نافذة غرفة نوم الملك والملكة الّذَيْن لم يلحظا أي شيء لأنهما كانا يغطّان في نوم عميق. عامد زرّيعة الشر الجذع الثاني مع الأول وربطه بشعر النّائحة الطّويل التي تسلّقت جذع الشجرة في انتظار الإشارة، ثمّ غطّى الجذوع برداء أبيض.

انعكس ظلّ الفزّاعة الكبيرة على النافذة المناطحة للقمر وراح نسيم الليل يداعب الغطاء. في تلك اللّحظة أشار الفتى للنّائحة فبدأت تنوح وتهلط بمرارة ثمّ أشار للحصان فبدأ بالجري والصّهيل ورفس شجيرات التّوت عند مدخل القلعة.

استيقظ الملك والملكة والخوف يكاد يفتك بهما، وقد أقسما بأنّهما سيزوّجان ابنتهما لأن شخص ينقذهما من هذا الكابوس العفن. في تلك اللّحظة دخل الفتى وأقسم أنّه سيوقف هذا الرّعب الذي أطاح بقلبي الملك والملكة، ثمّ خرج. وللمفاجأة فإنّ النواح والرّفس الجنوني قد توقّفا واقتلع

[1] تلهط: تنوح بمرارة وتنط في كلّ اتّجاه لأنّ أحدهم قد مات

الحصان المخبول الجذعين وراح يجري بعيداً والنّائحة بدأت تلهط لسبب ما.

أعجبت الأميرة بذكاء زرّيعة الشّر وقرّر والداها أن يزوّجاها به عند ظهور أول خيط من أشعة الشّمس. دُعي كلّ سكّان الغابة إلى حفل الزّفاف، ومن بين المدعوين كانا والدا زرّيعة الشّر، وعندما سمعا باسمه وعلما أنّه ابنهما فقد ندما كثيراً لأنهما تخلّيا عنه.

بدأ الناس يفِدون إلى القرية التي بنيت بجانب القلعة لأن الحقول كانت تنتج من خير الأرض بسلام ودون إزعاج من الطّيور، وهذا كلّه بفضل الفزّاعات التي صنعها زرّيعة الشّر.



في قديم الزّمان عاشت ابنتا عمّ شابّتان بجوار بعضهما، وقد كانتا كلتاهما جميلتان إلاّ أنّ إحداهما كانت طيبّة كريمة والأخرى شرّيرة أنانية. كان اسم الطّيبة زنبقة وقد عاشت في الجزء الصّحراوي من المكان في بيت صغير ولديها دجاجة صغيرة، واسم الشّريرة صبّارة وقد عاشت في الجزء الذي تحيط به الأشجار والميّاه الجارية.

في يوم ما مرّت عجوز متسوّلة أمام بيت زنبقة وهي تشكو العطش، طرقت باب البيت وعندما فتحت زنبقة الباب قالت العجوز:

- "هل أجد عندك شربة ماء يا ابنتي؟"

سارعت زنبقة إلى الدّاخل وطلبت من العجوز أن تتبعها، ثمّ رفعت غطاء البرميل الخشبيّ القديم وغرفت من الماء البارد. شربت العجوز حتّى ارتوت ثمّ ألقت نظرة على البرميل فوجدت أنّه شبه فارغ، عندها أشفقت العجوز على زنبقة التي آثرت الغريبة على نفسها، فهي لم تبقي الماء لنفسها فقط رغم قلّته. أصرّت زنبقة على العجوز أن تتعشّى وتبيت عندها اللّيلة، حاولت إقناعها بالفعل إلى درجة أنها كانت ستذبح دجاجتها الوحيدة وتطبخها من أجلها.

أبت العجوز أن تبقى وشكرت زنبقة وواصلت مشيها تحت الشّمس إلى أن وصلت إلى بيت صبّارة حيث يوجد الماء العذب الجاري

الذي تحفّه شجيرات التّفاح. جلست العجوز تحت ظلّ شجرة وراحت تستمتع بالنّسيم اللّطيف، وعندما لمحت صبّارة مسرعةً نحوها تظاهرت بالتّعب والعطش وراحت تستعطفها:

- "هل أجد عندك شربة ماء يا ابنتي؟"
- "لا يوجد عندي ماء يا عجوز، والآن انقلعي من هنا!"

أمسكت صبّارة العجوزَ من ذراعها ورمتها رمياً، ثمّ استلقت بدلاً منها تحت الظّل. راحت العجوز تتوسّل وقد وعدتها بهدية إن سقتها بعض الماء، ولأنّ صبّارة كانت جشعة وبخيلة رغم أنّها جميلة، فقد قبلت على الفور. تسلّقت بخفّة شجرة التّفاح وقطعت أصغر ورقاتها، ثمّ عمدت إلى النّهر وغمست الورقة في الماء، بعد ذلك فتحت فم العجوز بقوّة وبدأت في تقطير الورقة. نزلت قطرة واحدة فقط لم تكن كافية لإخماد عطشها المصطنع. بعدها قالت صبّارة:

- "ها أنتِ الآن قد سُقيت عطشك، ومتّعتِ عينيك بحمرة التّفاح. لا تنسي انّك قد وعدتني بهديّة، هاتيها إليّ. ستجدينني تحت الشّجرة آخذ قيلولة، حطّيها عند رأسي ولا تقلقي قيلولتي، وعندما ترحلين امشي على رؤوس أصابع قدميك، والآن افرنقعي في التّو واللحظة يا حلوة!"

والحقّ أنّ العجوز قد اختفت وبعد ساعة ظهرت تحمل ثوبين جميلين. ثوب أخضر مليء بالأشواك وآخر أبيض من الحرير. وضعت

الثّوب الأخضر بالقرب من صبّارة والأبيض بالقرب من زنبقة التي نامت أيضا.

استيقظت صبّارة، وهي لم تكن مستيقظة تماماً ودليلنا على ذلك أنها عندما لبست الفستان لم تلاحظ الأشواك النّاتئة منه. وبطريقة سحريّة تحوّلت صبّارة إلى صبّارة في الصّحراء تلفحها الشّمس، لا تكاد تجد قطرة ماء لفترات طويلة.

أما زنبقة فقد تحوّلت مباشرة إلى زنبقة ماء جميلة تنعم بالنّسيم وتستمتع بصحبة الضّفادع النّقناقة وجنّيات الماء اللّواتي يعشقن الاحتفالات.



تمرّد خراف الأحلام

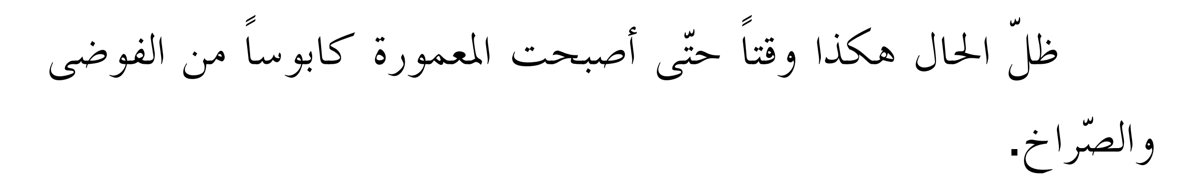
في قديم الزّمان كان النّاس ينامون بطريقة تختلف عن طريقتنا، عندما يستلقي أحدهم على سريره في المساء لينام، فإنّه ينادي الرّاعي هيبنوس[1]، وينتظر مجيء النّوم والأحلام الظّريفة. عندها يجيء الرّاعي إلى بيوت الناس خلسة، ويجعل خرافه تنطّ على السور الخشبي أمام الإنسان الناعس من أجل أن يدخل إلى عالم الأحلام وينعم بنوم هانئ، ويستيقظ نشيطاً في صباح اليوم التّالي.

في أحد الأيام رفضت الخراف تأدية واجبها المعتاد، ولم تعر انتباهاً إلى صراخ وقفز الرّاعي هيبنوس، وراحت ترعى في عالم الأحلام إلى أن سمنت وما عادت تقدر على النّط على الأسوار الخشبيّة. عندها أصاب النّاس أرق شديد وراحوا يهذون. لم يعد الناس يستيقظون صباحاً لحلب الأبقار ولا مزاولة الدّراسة لأنهم متعبون، ينقصهم النّوم الكثير.

أصبح النّاس يغمضون أعينهم على أمل أن تنطّ أمامهم نعجة أو نعجتين، حتى لو كانت صغيرة، لكن بدون جدوى. حاول بعضهم أن يواصلوا نشاطهم اليومي لكنّهم بدلاً من إنجاز شيء ما، فقد أضحوا ضحايا حوادث مضحكة. مثل أن يخرج الحدّاد بصلة من سلّة غداءه ويطرقها على السّندان بدلاً من أن يطرق حدوة حصان أو سكّيناً، أو تكتب المعلّمة الدّرس على الحائط بدلاً من السّبورة.

---

[1] إله النوم عند الإغريق



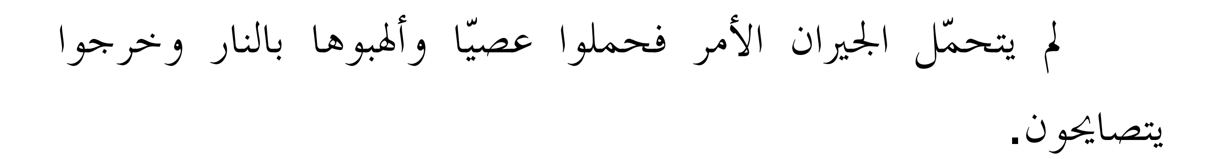
ظلّ الحال هكذا وقتاً حتّى أصبحت المعمورة كابوساً من الفوضى والصّراخ.

أصبح النّاس عصبيون جدّاً إلى درجة أن أشياء لم يلحظوها يوماً باتت تزعجهم. تجد عجوزاً يصرخ ويلوّح بالعصا ويتوعد الشّمس لأنها مضيئة جدّاً، والآخرَ غاضباً من أجمة لأنها تشبه لون كنزته. لكنّ ما يثير الرعب أكثر من كلّ هذا أنّ الأمهات وجدن طرقاً مخيفة في تأديب أبنائهنّ، تجد إحداهنّ ترغم أولادها على أكل البطاطا المحشوّة بالأفاعي، وأخرى ترغم أولادها على تنظيف غرفهم مجدّداً بعد أن أنهوا تنظيفها بالفعل للمرة المائة.

وهذا يجعلني أشكّ في الأمّهات أحيانا.

بعد فترة أحسّت الخراف بالملل، فالأكل والنّوم لا يعني كلّ شيء في النّهاية. ولهذا السّبب قرّرت العودة إلى مهامها المعتادة، وهذا ما أفرح هيبنوس بشدّة، لكنّ الفرحة لم تدم طويلاً لأنّ الخراف كانت سمينة إلى درجة أن سيقانها القصيرة لم تعد تستطيع حملها. وهنا اهتدى الخبيث إلى حيلة لتنحيف الخراف وعقابها في آن معاً.

فتح باب الزّريبة فخرجت الخرفان ببطء شديد، ثمّ راح يصرخ حتى يسمعه البشر المترعجون. عند ذاك أطلّ الجيران المغتاظون من النّوافذ والأبواب ورأوا أن الخرفان بطيئة حقّاً، مما زادهم حنقاً على حنق.



لم يتحمّل الجيران الأمر فحملوا عصيّا وألهبوها بالنار وخرجوا يتصايحون.

ما إن التفتت الخراف المسكينة صوب زغردة الجيران المخابيل حتى سيطر عليها الخوف، وأدركت أنها إن لم تسرع الخطى فإنها ستمسي خرافاً مشويّة. صارت تجري وتولول بين البيوت والتّلال وعرانيس الذّرة، ووجه هيبنوس لا يجد التّعبير المناسب لرسم الفرحة. وراح الجيران المتاعيس يتوعّدون ويجرون خلف الخراف التّي تفرّقت وراحت في كلّ مرة تقفز فوق شيء، مرّة فوق شجيرة ومرة فوق طفلٍ مستلقٍ على الأرض يحفر حفراً للنّمل ومرّة تقفز فوق حبل الغسيل.

فجأة –ولأنّ الخراف كانت تنط بكثرة- داعب النّعاس أعين الجيران الحمقى فبدؤوا يتساقطون واحداً تلو الآخر إلى أن ارتفع الشّخير، وفي نفس الوقت استعادت الخراف لياقتها ورجعت إلى مهامها وغطّ البشر في نوم عميق وارتاحت الأرض منهم.



الدب والسّبات الشتوي

اعتادت العجائزُ اللّواتي يعشن في الجزء الشّمالي من الكرة الأرضية أن تحذّر أحفادها من الخروج خلال الشّتاء لأنّ الدّببة تكون في مزاج سيء وستأكل كلّ من يزعجها.

في القديم لم تنم الدّببة طوال الشّتاء كما هو معروف الآن، بل كانت تقيم حفلات صاخبة تدعوا فيها كلّ الحيوانات. لقد كانت الدّببة مسالمة ومرحة. في الصّيف كانت تجمع الزّاد لتحضّر للحفلات الطّويلة، فقد كانت تقصد الأنهار قبل أن تتجمّد وتصطاد الأسماك وتجفّفها في جذوع الأشجار، وكانت تجمع العسل وتخزّنه في جِرار طينيّة بعدما تسرقها من البشر. وهي لم تجمع الأكل المفضّل لديها فحسب، فقد جمعت الأعشاب البرّية للغزلان والدّيدان للطّيور التي لم يسعفها الحظ و لم تهاجر إلى المناطق الحارّة.

عندما تبدأ علامات الشّتاء بالظهور، مثل هبوب ريح الشّمال أو تساقط الثّلوج الخفيفة، ترسل الدّببة المراسيل إلى الحيوانات لتتوجّه إلى الكهوف تحت الأرض أين ستقام الحفلات. مع الوقت تقوى الرّياح وتتحوّل البراري والغابات إلى قفار بيضاء ويموت سطح الكرة الأرضية، أمّا باطنها فملتهب بالصّراخ والصخب.

ولأنّ الحيوانات تعوّدت على وفرة الغذاء المجاني فإنّها أصبحت تبذّر الأكل وتظنّ أنه لن ينضب. وتفكر في أنّ الدّب سيحصل على المزيد من الأكل في أي وقت يشاء، متناسية أنّه كان يمضي ثلاثة أشهر في جمع المئونة بمشقّة عظيمة.

في الكهف الأرضي تجد الطّيور تتراشق بالدّيدان والحبوب عندما تشبع، والذّئاب تلعب بالأسماك أو تفترشها حتّى تفسد. أما القرود فإنّهم يشاكسون الثّعالب ويرشقونهم بالفاكهة المجفّفة، وهذه الأخيرة تجمع تلك الفاكهة وتكوّرها بالعسل والتّراب حتّى لا تعود صالحة للأكل وترميها في كلّ اتّجاه.

أمّا الدّب فقد شعر بالإهانة وبلغ صبره الحدّ، فبدأ بكَيل الكلمات، صمتت الحيوانات لوهلة لفهم الموقف، إلاّ أنها سرعان ما واصلت هرجها، غير مبالية بالمجهود الذي بذله الدّب في سبيلهم حتّى يحميهم من الشّتاء القاسي. صرخ الدّب مجدداً، وفي ثورة غضبه أمسك أحد القرود ورماه على عصفور يجرد الدّود. إلاّ أن القرد لم يحصل له شيء فقد تمسّك برشاقة على أحد الجلاميد النّاتئة من أحد الجدران، والعصفور طار من فوره دون أن يصيبه أذى. وهذا زاد من فورة غضب الدّب.

أما هذه المرة فقد أمسك بذئب كان عقله شارداً في عد الأسماك المجفّفة، ورماه بقوة أكبر من الأولى حتى سقط على جمع الغزلان التي تقامر فيما بينها بجرار زيت الزّيتون.

أدركت الحيوانات أخيراً أنّ الدب في مزاج سيء، ومخافة أن يأكلهم واحداً تلو الآخر، فقد نطّ من يستطيع النّط وطار من له جناحان، وقد كان حيوان الكسلان من أسوء هذه الحيوانات حظّاً، فهو لم يستطع –لسبب نعرفه جميعنا- تجنّب قذائف جرار العسل والذّئاب. حتّى ابن عرس لم تنفعه توسّلات الرّحمة.

بعد هذه الحادثة قرّر الدّب أنه لن يقيم أيّ حفلة لناكري الجميل، ولن يفكّر بهم وهو مكوّر وسط جذع شجرة وأكوام الخيرات تحيط به، وهو قطعاً سيلتهم كلّ من يزعجه.



على ضواحي مدينة كبيرة يمكن للإنسان أن يجلس خارج أحد الأكواخ ويحلم، يراقب الأضواء الخافتة التي تنبعث من مصابيحها البعيدة، وهي تتراقص على إيقاع النّسيم الخفيف.

منذ بضع سنوات، قرّر شاب أن يخرج باكراً كالعادة ليهيم في الجوار بلا هدف، وجد فتاةً غائبة عن الوعي على الأرض أمام عتبة باب كوخه. كان شعرها الطّويل مربوطاً بربطة زهريّة جميلة، حملها إلى الكوخ بسرعة ووضعها على فراشه الرث، ورشّ الماء على وجهها، ولحسن الحظ فقد استعادت وعيها، إلاّ أنه ولسوء الحظ كذلك فقد كانت فاقدة الذّاكرة، و لم يكن بيده إلا أن تبقى معه إلى أن تستعيد ذاكرتها.

تغيّرت الحياة في الكوخ منذ ظهور الشّابة وصارت أكثر جمالاً. مرحُ الفتاة ينشر البهجة في أركان هذا البيت الصّغير وبذلك تحوّل إلى عالم صغير من الأحلام. قبل حلولها عليه، كان البيت مثل القبر ولولا حاجة الفتى إلى مكان يقيه من البرد والهوام ليلاً، لما بقي فيه يوماً واحداً. لكنّ الفتاة غيّرت كلّ ذلك، أصلحت الموقد القديم وباتت نيرانه تلتهم الظلام المنتشر بين الحيطان، وزيّنت النّوافذ بستائر خفيفة تراقص النّسيم، وحوّلت كلّ قطعة خردة مطروحة في جانب ما إلى شيء جميل أو وضعتها في مكانها المناسب. حتّى أنها عمدت إلى الجدران لتطليها بألوان نابضة بالحياة وجدتها في مكبّ النفايات القريب. أصبح المكان خارج

الدّار أجمل أيضاً بعد أن تخلّصت من أكوام النّفايات المتناثرة ولطّفت ترابه بالماء، لتنبعث منه رائحة زكيّة تشبه المطر.

شعر الشّاب بالحاجة إلى وجودها يزداد في كلّ مرّة، وصار متعلّقاً بها أكثر.

في كلّ ليلة وبعد عمل مضنٍ، كانت تسند ظهرها على حائط الكوخ المقابل للمدينة، تشاهد أنوارها البعيدة المتلألئة، تناجيها وتغريها بالأحلام. يجلس الشّاب بجانبها، فتضع رأسها على ذراعه، وتبدأ في عدّ الأضواء. في كلّ مرة عندما تنهي العدّ تجدها تغطّ في نوم عميق.

ظلت الحياة على هذا المنوال السّعيد، حتّى لم يعد الفتى يريد أيّ شيء آخر في الدّنيا، كلّ ما أراده هو أن تبقى الشابّة معه إلى الأبد.

في إحدى اللّيالي غطّت الفتاة في نوم عميق يشبه الموت، دون أن تعدّ الأضواء مثل كلّ ليلة. أصيب الفتى بالقلق، لأن هذا ليس من عادتها، فراح يضع ظهر يده بالقرب من أنفها ليتحسّس تنفّسها، إلا أنّه لم يشعر بنفَسها على يده، عندها أحسّ بالضيق الشديد فقال في نفسه لعلّه التّعب. ثمّ وضع رأسه المرتجف على صدرها ليسمع نبضها.

سرت البرودة في جسمه وراحتْ راحتا يديه تتعرّقان، وتنفّسه يضيق ويتوقّف. وجد نفسه يعدّ الأضواء دون أن يشعر، يعدّها ثمّ يتوهّم بأنّه أخطأ العدد، فيعيد الكرّة. تشوّش ذهنه من الصّدمة وراح يقول لنفسه أنّ هناك ضوءاً جديداً في المدينة، راح يهزّ الفتاة وهو يخبرها بالخبر

الجديد. لم تتحرّك الفتاة بالتّأكيد، فعاد ينظر إلى الأضواء مجدّداً، وهو يحسّ بالضّياع الشّديد. اختلطت الأصوات في ذهنه فأصبحت فوضى، ثمّ توقّفت فجأة.

صرخ الفتى أخيراً صرخة عظيمة، لقد ماتت الفتاة، اعترف لنفسه بصوت واضح.

صرخ وانتفض واستنجد عبثاً بالأضواء، ثمّ سقط فجأة.

أيقظت أشعة الشّمس الأولى الفتى المفجوع، الذي شهق شهقة كبيرة مثل التي تجيء بعد البكاء الطّويل. نظر حوله بهدوء فوجد الفتاة تزرع الزّهور بنشاط وهي سعيدة.



منذ أزمان سحيقة عاشت في الأرض حمير بيضاء وأخرى سوداء، وقد كانت هذه الحمير تكره بعضها، وكلّ مجموعة منهما تدّعي أنها أفضل من الأخرى وأنه قد قدّر لهما أنّهما لن يتّفقا أبداً.

في أحد الأيام، وبينما كان الجمعان منشغلان بالنّهيق الحادّ والتراشق بالفجل والكلمات الفاجعة، في ومضة زمنيّة مسحورة، التقت عيون حمار وحمارة من الجماعتين. ومنذ تلك اللّحظة تغيّرت الكراهية في قلبيهما إلى حبّ جارف.

صارا يتواعدان في السافانا ويستمتعان بحفيف سيقان الحشائش الطّويلة المتلاطمة وهي تقاوم النّسيم المتحمّس، ويغمسان نفسيهما في الوحل في الصّباح الباكر مع أفراس النّهر وهما يتصايحان من شدّة المرح. كما أنّهما لم يضيّعا فرصة مشاهدة الغروب البرتقالي معاً، إذ يوحّد شعاع الشّمس لونهما فيزيدهما قرباً ومحبّة.

في اللّيالي المقمرة تصرّ الجنادب أهازيجها بين الحشائش والضّفادع تلهوا في برك الوحل وتنقنق، والبوم تغنّي أشعارها للنّجوم، وصديقانا يستمتعان في صمت، فهما لم يلاحظا هذا الجمال البسيط في الطّبيعة من قبل، فقد كانت كلّ أيامهما تجمّعات وتخطيط وكراهية، ومحاولات رفس

فاشلة يرجع الحمار منها يجرّ ذيول الغيظ والخيبة. أحسّ الحماران أنّ الكون يبتسم لهما في تلك اللّحظة، فعرفا أنهما يريدان البقاء معاً إلى الأبد.

بعد مدّة زيّنا الكون بجحشة ظريفة مخطّطة بالأبيض والأسود، تحبّ اللّهو ومصاحبة الحيوانات المختلفة. لقد كانت ثمرة حبّ، ودليلاً على أنّ الإختلاف بين الحمير اختلاف سطحيّ وأنّها مهما اختلفت من الخارج في ألوانها وأحجامها، فهي ستبقى حميراً.

علّم الحماران ابنتهما أنّ الحياة جميلة وبسيطة، ولكنّها قصيرة أيضاً، ولهذا لا يجب أنّ نضيعها في صنع الكراهية وخدمة من يحثّ عليها. وهذا لا يتمّ إلا بمعرفة أنفسنا وما نحبّه، وعلاقتنا بالكون من حولنا.

بولينا

هناك قرية صغيرة ينتقل منها بعض سكّانها كل عام إلى المدينة الكبيرة دون رجعة بعد أن ضاقت أنفسهم من رتابتها القاتلة، هذا ما أخبرني به أحد أهاليها السّابقين الذين انتقلوا حديثاً إلى المدينة. قال: تجد بعضاً من عجائزها مبعثرين على الحيطان في صمت مثل الموتى، من الصّباح الباكر إلى أن يقترب وقت الظّهيرة. البيوت تخلوا من الحركة إلاّ نادراً، والحديقة لا تجد فيها أحداً إلاّ العصافير التي تلعب قليلاً بين الشجيرات الصغيرة، ثمّ تعود سراعاً إلى السّماء. ما تراه في يوم ما توقّع أنّك ستراه في اليوم الموالي والذي بعده. والحقّ أن القرية قد آلت إلى هذا الحال منذ تلك اللّحظة التي اختفت فيه بولينا.

بولينا كانت فتاة صغيرة مرحةً حافلةً بالحياة، وقد كانت تجوب القرية وضحكاتها وصياحها يملأ الشّوارع. تارة تطارد قطّاً فوق أحد الأسوار، وتارة أخرى تجوب الأزقّة صباحاً وتلقي التّحيّة بنشاط على كلّ من تقابله.

أحياناً كانت تأتي إلى الحديقة وسط القرية وفي يدها زهرة أو غصن شجرة، ثمّ تحفر حفرة صغيرة وهي تغنّي، بعدها تضع الزّهرة أو الغصن فيها وتهيل عليها التّراب النّدي. ثمّ تتوالى خطواتها الرّشيقة الأنيقة إلى بيت العجزة لتلعب مع الجدّات الوحيدات والشّيوخ مكسوري الخاطر، والحقيقة أنّهم ينتظرون الصّباح بفارغ الصّبر دوماً، ويتربّصون ضحكاتها

المليئة بالحياة عندما يُفتح الباب الحديدي الصّدئ، فتنهال على الجدّات بالقبلات وتمسكهنّ من أياديهنّ وتراقصهنّ واحدة تلو الأخرى، ثمّ تقصد الشّيوخ الذين تضحك عيونهم من الفرحة وتراقصهم أيضاً.

أحياناً كانت تلبس قبّعتها الكبيرة وتضع حقيبتها الصّغيرة على ظهرها بعد أن تضع فيها بعض الخبز وبقايا عشاء البارحة وقربة ماء، وتروح في رحلة قصيرة إلى الغابات المجاورة، حيث تمضي نهارها في تسلّق الأشجار وتقليد القرود الرّشيقة والصّفير مع العصافير. وعندما تحين الظّهيرة، تجلس تحت ظل شجرة باسقة يحرّك النسيم أوراقها، وهي تستمتع بصوت الأوراق والطّيور تفتح حقيبة ظهرها ثمّ تشرع في الأكل بنهم وهي تسبح في أحلام اليقظة.

بولينا كانت صديقة الجميع، وقد كانت ضحكاتها التي تُسمع من بعيد مع طيور الصّبح، شيئاً بديهيّاً. لم يتوقّع أحد يوماً أن تختفي ضحكاتها فجأة.

في أحد الأيام استيقظ الكبار كالعادة ليباشروا أعمالهم، وتوقّعوا أنهم سيصطبحون ببركة بولينا مثل العادة. لكنّ الشّوارع كانت صامتة، وصرير باب الحديد في بيت العجزة لم يُسمع كالعادة.